

المحاضرة الخامسة

الوحدة رقم 5: المنشآت البيزنطية في بلاد المغرب القديم

1- المنشآت العسكرية (الهيكل الدفاعية) البيزنطية في بلاد المغرب

- المدن المحصنة Civitates

- المراكز العسكرية Castras

- القلاع المحصنة Castellae

- القلاع

- الأبراج /المحارس Burgis

- الحواجز (Clisurae)

1- المنشآت العسكرية (الهيكل الدفاعية) البيزنطية في بلاد المغرب :

مع استقرار الأوضاع الأمنية بين الحين والآخر في بلاد المغرب القديم والتوسعات التي قام بها صولومون وبعده جون تروقيليتيا، شرعت الإدارة العسكرية البيزنطية في إقامة التحصينات والأسوار في المدن والمقاطعات التي تم السيطرة عليها، وذلك بهدف صد الهجمات الكثيرة والمتكررة التي كان يقوم بها زعماء القبائل المورية .

و لإقامة التحصينات والأسوار تم استعمال حجارة المنشآت الرومانية القديمة خاصة التي كانت في المنشآت الدينية من المعابد والطرق والمسارح لبناء الأبراج وحصون المراقبة والأسوار، وهو ما يؤكد شارل ديبل حيث تم ذلك في كل من تبسة وتلابت ومداوروش وتيمقاد وسطيف وحيدرة، كما تم استعمال قوس النصر الذي كان في حيدرة ومصرح تبسة ومداوروش، الأمر الذي يجعلنا نعتقد ونؤكد فكرة أن المسؤول الأول و المباشر على تخريب المنشآت الرومانية وتهديمها في بلاد المغرب هم البيزنطيون وليس الوندال ولا القبائل المورية كما يزعم الكثير من المؤرخين الغربيين .

وقد قام صولومون القائد العسكري ببناء الكثير من القلاع والحصون على طول أقاليم المغرب، وفي المناطق التي استطاع إخضاعها، حيث أنشأ مجموعة من القلاع و الحصون على طول الطريق الرابط بين قرطاج وسيرتا، وبين قرطاج وقابس وقرطاج وتبسة ليسهل عملية الانتقال والاتصال بين المناطق، وكذا حماية المدن البيزنطية من هجمات القبائل الأوراسية، ومن بين أهم القلاع التي تم بنائها في نوميديا القلعة البيزنطية في تيمقاد، وهي كانت بمثابة الملاذ والملجأ والحصن الحصين للجيش البيزنطية من هجمات القبائل الاوراسية .

ويرى كومب(Camps) في ذلك أن فترة الاحتلال الوندالي والبيزنطي لبلاد المغرب لم تكن سوى مرحلة انتقالية في تاريخ المنطقة، وهي المرحلة التي استطاعت فيها الممالك والقبائل المورية إقامة وتكوين ممالك مستقلة، في حين كانت الفترة البيزنطية فقط فترة بناء القلاع والحصون وإعادة ترميم وإحياء بعض المدن الرومانية القديمة .

ومن المنشآت العسكرية البيزنطية ببلاد المغرب القديم نجد:

1. المدن المحصنة (Civitates):

كانت تحيط بالمدن المحصنة أسوار عالية وبها مدخل محروس بشكل جيد، وسكانها من أصل روماني أو من الرعايا الرومان، حرفتهم الزراعة والنشاط الحرفي، تخضع للنظام الإداري الروماني، كما يقيم في هذه المدن المحصنة أيضا الجنود البيزنطيون الذين يحرسون المدينة والإقليم التابعين له، تلعب هذه المدن دور الملجأ للريفيين إذا ما تعرضوا لهجمات المور.

تُبرز الشواهد الأثرية سبعة عشر(17) مدينة محصنة بأسوار، وتعتبر بذلك مُدنا محصنة، تتجاوز مساحتها ثلاث هكتارات، وتنقسم هذه المدن إلى قسمين: قسم مدني يمارسون فيه الحياة الاجتماعية بصفة طبيعية وعادية، وتوجد في هذه المدن كنائس، وساحة عامة وأسواق ... وغيرها من المرافق العامة ، أما الجنود فيسكنون في الحاميات العسكرية والتي يوجد بها حمامات ومطابخ ومخازن ومؤون الذخيرة وإسطبلات الخيول وكنيسة، أي أن مهمة الجندي في المدن المحصنة تقتصر على أمن وحماية المدينة من أي خطر خارجي قد يهددها خاصة من طرف القبائل المورية، وتلعب المدن المحصنة دورين عسكري ومدني، يدخل ضمن هذا الصنف كل المدن المحصنة وبعض المراكز العسكرية كحيدرة وتيفاش وهنشير سببية .

ومن المنشآت العسكرية البيزنطية في البروقنصلية نجد قلعة أو حصن حيدرة الذي بناه القائد صولومون بأمر من الإمبراطور جوستينيان، وهو من المنشآت التي مازالت تحافظ على هيأتها البيزنطية، وهي من المشاريع الضخمة التي أنشأها جوستينيان في بلاد المغرب، الهدف منها هو إحكام السيطرة في المقاطعة ومحاربة كل الثورات الداخلية، وقد قام بدراسة حصن حيدرة كل

من شارل ديل وبرينغل ودورليا ودوفال....الخ، وتقرر أن الهدف من ذلك هو حماية المدينة من الأخطار الداخلية و الخارجية التي تهدد مقاطعة البروقنصلية.

2. المراكز العسكرية (Castras):

و هي مراكز تضم فقط الجنود البيزنطيين، وهي منشآت دفاعية مهمتها حراسة المدن المفتوحة تقدر مساحتها ما بين 1.5 إلى 3 هكتارات، شيدت في المناطق المنعزلة والإستراتيجية أو في المراكز الحضرية حتى تتمكن من رد هجمات القبائل المورية، فهي عبارة عن ثكنات عسكرية يعسكر فيها الجنود ويخضعون فيها لنظام الهيئة العسكرية، ويمكن إدماج المراكز العسكرية في هذا الصنف وكذا القلاع المحصنة، من أمثلة ذلك: قلعة عين تونقة و زرايا و قصر سباحي و قصر لمسة و عين الحجل و عين توبورنوق وقاستال...الخ، و هي مراكز تحتوي على فرق عسكرية دائمة .

3. القلاع المحصنة (Castellas):

هي قلاع تقام في المواقع الإستراتيجية، تكون شديدة التحصين، ذات مخطط عسكري منتظم، تكون في الغالب مستطيلة الشكل و في زواياها أبراج المراقبة، وفي أحد الأبراج توجد البوابة الرئيسية، يقتصر دورها على حراسة السهول الكبرى، وهي مبنية خصيصا للدفاع العسكري، تسكنها حامية من الجيش.

تقدر مساحة القلاع من نصف هكتار إلى هكتار ونصف، وقد تحتوي على سرية أو سريتين من الجنود، من نماذج ذلك: القلعة المحصنة بتيقاد كنموذج لهذا النمط من المنشآت العسكرية البيزنطية في بلاد المغرب.

4. القليع :

تكون القليع عادة مربعة الشكل، بها أبراج في الزوايا، نجدها بكثرة في بلاد المغرب ، كانت ذات إتقان عالي في البناء، ويبدو أنها بنيت بسرعة والغرض منها كان عسكري بالدرجة الأولى لضمان الأمن والاستقرار في المناطق التي تم اخضاعها.

5. الأبراج /المحارس (Burgis) :

تقام الأبراج أو المحارس بين المدن والقلاع، وهي صغيرة الحجم، الهدف منها هو المراقبة والحراسة ، تقام فوق التلال الطبيعية وفي المناطق المرتفعة، حتى يتسنى لها مراقبة كل المناطق التابعة لها، ومراقبة أي هجمات قد تحدث قبل الاقتراب إلى المدن لاتخاذ التدابير اللازمة، تقام الأبراج أو المحارس عادة في تخوم الممالك والمقاطعات، أو عند مفترق الطرق المهمة، وتكون في وسط المواقع الدفاعية، لتكون بذلك مهمة الأبراج استلام وإرسال المعلومات والإنذارات والأخبار وتوزيعها عبر المواقع الدفاعية القريبة منها .

كانت الأبراج أو المحارس تلعب دور مهم في الاستقرار والأمن، فهي بمثابة الخط الدفاعي المتقدم للقلاع والحصون والمعسكرات، ويمكن القول أنها كانت عبارة عن أقواس مجاورة للمدينة أو مدمجة في أسوار المدينة، أما عن بنائها فهناك من تم بنائه من طرف السكان المحليين ومنها من بنتها السلطة البيزنطية بحيث يصعب التمييز بينهما.

تكون الأبراج عادة مربعة الشكل، تتراوح مساحتها ما بين عشرة إلى عشرون متر في كل جانب، ونجدها تتقدم المدن المحصنة والمراكز العسكرية، تم العثور على نماذج منها في كل من: حيدرة ومكثر وضواحي تبسة.

6. الحواجز (Clisurae):

وهي عبارة عن أسوار أو خنادق، كان الهدف منها منع السكان المحليين من اجتياز مسالك غير مراقبة أو غير محروسة بمنشآت عسكرية. ويمكن تقسيم المنشآت العسكرية إلى ثلاثة أنماط: النمط الأول: يحتوي على كل المنشآت التي تخدم الجانب العسكري والمدني مثل: المدن المحصنة والمراكز العسكرية.

النمط الثاني: يحتوي على المنشآت الخاصة بالجنود فقط مثل: القلاع و القليع.

النمط الثالث: فهي المنشآت النابعة من الإرادة الشخصية للسكان، حيث تم تشييد مثل هذه الأعمال من قبل الإدارة البيزنطية، فنجد مثلا: الأبراج والملاجئ تكون في نقاط مختلفة، وكانت في معظمها بمبادرة السكان أي أن السكان هم من قام بتشبيدها لتكون كحواجز للمراقبة، يتمثل دورها في التبليغ إذا حدث هجوم معين أو تكون كملاجئ في حالة الحرب.

وقد تم العثور على نقيشة إهدائية بمدينة ميلة قام بدراستها كل من قزال (Gsell st) وديزانج (Désanges)، تبين أن المدينة تحوي سور وهو سور بيزنطي تم إنشائه في عهد الإمبراطور جوستينيان و يحمل اسم الإمبراطور، ويعتقد أن هذا السور تم بناءه ما بين 539-544م أي من طرف القائد صولومون لأن الإهداء أيضا يحمل اسم القائد البيزنطي صولومون.

مما سبق يمكن القول أن السياسة العسكرية البيزنطية نجحت إلى حد كبير في إرساء الأمن والاستقرار في المقاطعات التي سيطرت عليها، و يعود ذلك إلى الإستراتيجية العسكرية التي أقرها الإمبراطور جوستينيان رغم التكاليف المالية والبشرية التي كلفت الإمبراطورية البيزنطية .

كما أن نجاح الإدارة العسكرية في بلاد المغرب، كان بسبب اعتمادها على الإستراتيجية العسكرية الرومانية القديمة، والاعتماد على مختلف الطرق البرية والمنشآت العسكرية الرومانية

في التحكم في المقاطعات، من خلال التقسيمات العسكرية البيزنطية المستوحاة من التقسيمات العسكرية الرومانية القديمة .

و قد كان الإمبراطور جوستينيان الدور الكبير في إرساء الأمن والاستقرار في عهده وعهد خلفائه، وذلك من خلال الإستراتيجية العسكرية والاعتماد على المنشآت و الحصون الدفاعية بشكل كبير في كامل المناطق المسيطر عليها، وذلك باستخدام بقايا المنشآت الرومانية القديمة من طرق ومرافق عامة في بناء المراكز العسكرية والحصون البيزنطية، الأمر الذي يقودنا إلى الاعتقاد والقول أن المتسبب الحقيقي في تخريب العمران و المنشآت الرومانية القديمة في بلاد المغرب هم البيزنطيون وليست القبائل المورية و الوندال حسب ما يقره البعض من المؤرخين .

هذا و رغم المنشآت البيزنطية الضخمة والسياسة العسكرية القمعية في بلاد المغرب، إلا أن ذلك لم يمنع السكان المحليين من ممارسة نشاطاتهم الاقتصادية والاجتماعية والوقوف في وجه التوسعات البيزنطية على حساب أراضي القبائل المورية، الأمر الذي أدى بالسلطة البيزنطية إلى محاولة التحالف و التقرب من هذه القبائل وعدم إثارتها بعد حروب كثيرة كانت بين الطرفين كلفت الخزينة البيزنطية أموالا وجيوش كبيرة .

كما إن بلاد المغرب القديم مقاطعة مهمة جدا للإمبراطورية البيزنطية الأمر الذي تبينه الإستراتيجية العسكرية والمناصب العسكرية المهمة قصد إبقاء السيطرة عليها وعدم الانسحاب منها مهما كلف الأمر، وهو ما تؤكدته الاسراتجية العسكرية القائمة على بناء أكبر عدد ممكن من المنشآت العسكرية رغم ما تكلفه من أموال الخزينة البيزنطية والذي انعكس سلبا على الحياة السياسية في بلاد المغرب وفي الإمبراطورية البيزنطية

كثيرة هي القبائل المورية التي ظهرت وبرزت مع ضعف الإمبراطورية الرومانية، وظهرت أكثر وأصبحت أقوى مع الحملة الوندالية لبلاد المغرب التي نجحت في القضاء على الاحتلال الروماني، حيث ظهرت هذه القبائل كحليفة للوندال لأن العدو كان مشتركا والهدف واحد وهو القضاء على الاحتلال الروماني .

لكن العلاقات الوندالية المورية تغيرت بعد ذلك وأصبحت علاقات عدائية، بسبب سياسة الوندال التوسعية ورغبة القبائل المورية في تحقيق استقلالها واسترجاع كامل أقاليم بلاد المغرب والقضاء على الوندال، بعد أن تأكدت من نواياه الاستعمارية وأهدافه الاقتصادية في النهب والسلب والسيطرة على المنطقة .

حيث ربطت مختلف القبائل المورية علاقات تحالف مع قائد الحملة على الوندال بليزار والإمبراطور جوستينيان وذلك للقضاء على الوندال، طمعا في الاستقلال والتخلص من الاحتلال

الوندالي بمساعدة الإمبراطورية البيزنطية، وهو ما كانت تنشره وتدّعيه السلطة البيزنطية من الحملة على الوندال، والتي اعتبرتها حملة تخليص لسكان بلاد المغرب من بطش الوندال وليست حملة احتلال للمنطقة .

غير أنّ العلاقات المورية البيزنطية تغيرت بعد ذلك وبمجرد القضاء على الوندال، حيث باشرت بيزنطا سياستها التوسعية واحتلالها للمنطقة، الأمر الذي أدى إلى تغير في العلاقات بعد تغيير الإمبراطور جوستينيان لسياسته الاستعمارية، بشن هجمات على القبائل المورية ومصادرت أراضيها ، الأمر الذي أدخل البيزنطيين في دوامة من الحروب أشهرها الحرب المورية الكبرى، التي لم تنتهي إلا بانتهاء الاحتلال البيزنطي لبلاد المغرب.

وقد ظهر دور القبائل المورية مع بداية الحملة البيزنطية للمنطقة، وبرزت قوتها وتماسكها أكثر مع بداية التوسع البيزنطي داخل الأراضي المورية، حيث وقف هذه القبائل موقف الكتلة الواحدة في كثير من الثورات ضد عدو مشترك هو الاحتلال البيزنطي وذلك قصد القضاء عليه واسترجاع استقلالها وأراضيها التي تم التوسع فيها، حيث سيكلف ذلك الخزينة البيزنطية أموالا طائلة للتصدي للثورات المورية وذلك بتجنيد جيوش كبيرة وبناء منشآت عسكرية ضخمة في المناطق التي تمت السيطرة عليها .